المكتبة الخضراء للأطفال

٦٢

الكسلان وتاج السلطان

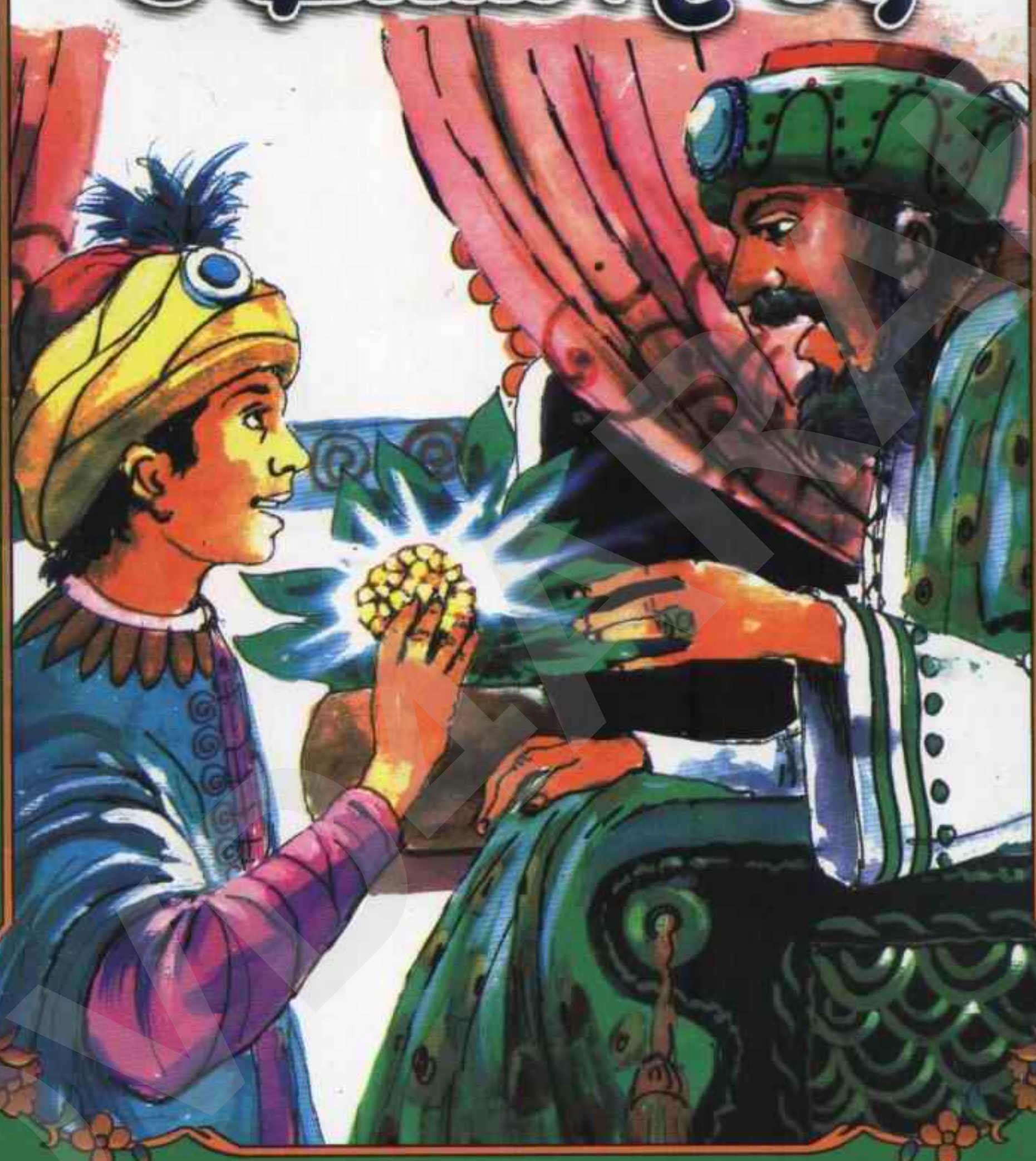

تأليف
يعقوب الشاروني

رسوم
أحمد أمين

دار المعارف

المكتبة الخضراء للأطفال

٦٢

الكَسْلانُ ونَائِحُ السُّلطانْ

تأليف
يعقوب الشارونى

رسوم
أحمد أمين

دار المعارف

① جَوْهَرَةٌ مَطْلوبَةٌ

انطلقَتْ ضَحِكاتُ السُّــلْطانِ الأكْبَرِ « الخَليفَةِ هَارون الرَّشِيد » تُعبِّرُ عنْ إعْجابِهِ الشَّديدِ بِحِكاياتِ « أبو الأجراس » ، أظرفِ رُواةِ النَّوادِرِ والأخبارِ فى بغدادَ عاصِمةِ الخلافَةِ ، وَقدِ انْطلقَ يُلقيهَا فِي أداءٍ تَمْثيلِيٍّ ساخِرٍ أثْناءَ لَيْلَةٍ مِنْ لياليِ السَّمَرِ المُمْتِعةِ فى القَصْرِ السُّلْطانِيِّ .

ولمحَ الخَليفَةُ الغُلامَ « همدان » المُكَلَّفَ بالخدْمَةِ فى بَيْتِ النِّساءِ ، الذى اسْــتأذَنَ من سَــيِّدَتِهِ زُبَيْدة زَوْجَةِ الخَليفَةِ ؛ لِيُشارِكَ فى بهجَةِ ليالى سَيِّدِهِ ، فاسْتَدْعاهُ إلى جوارِهِ لِيُصْدِرَ إليه أمْرًا عاجِلاً :

« أسْرِعْ إلى سَيِّدَتِكَ .. هِيَ تُحِبُّ الاسْتماعَ إلى نَوادِرِ « أبو الأجراس » .. قُلْ لها الخَليفَةُ يَدعْوكِ لِلحُضورِ ، وتَأكَّدْ أن شُرْفَةَ السَّيداتِ قَدْ أعدَّتْها الوَصيفاتُ لاستقبالِهَا » .

وَفوجِئَ الخَليفَةُ بعدَ قليلٍ ، بدلاً مِنْ مَجيءِ الســيِّدةِ زُبَيدة لِتَجلسَ فى الشُّــرْفَةِ المُخصَّصَةِ لها ، بعودةِ « همدان » يحملُ بينَ يدَيْهِ تاجًا رائــعَ الجَمالِ مِنَ الذَّهَبِ الخالِصِ المُرصَّــعِ بِالمـاسِ واللُّؤلؤِ ، لكِنْ هناكَ فَجْوَةٌ كبيرةٌ خالِيَةٌ عندَ مُقَدِّمتِهِ فى حَجْمِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ !

سألَ الخَليفَةُ الغُلامَ فِي دهشةٍ : « هَلْ أرسَلَتْ سيِّدتُكَ بدلاً منها، التاجَ الذى طلبْتُ صُنْعَهُ هديةً لهَا ؟! »

أجابَ الغُلامُ : « سَــيِّدَتى كانْتَ تَودُّ الحُضورَ يا مولاى ، وهدِيَّتُكَ الكَريمَةُ تُزيِّنُ رأسَــها ، لكنَّ الصائغَ أعادَهُ منذُ قليلٍ معَ رســالَةٍ تقُولُ إنهُ لم يعثُرْ على جَوْهَرةٍ كَبيرَةٍ تُناسِبُ مَكانهَا عندَ مُقدِّمَةِ التاجِ » !

وفَهِـمَ الخَليفَةُ أَنَّ زُبَيْدَةَ تُعاتِبُهُ لانْشِـغالِهِ عَـنْ مُتابَعةِ إتمامِ صُنْعِ هَديتِهِ إليهَا ، فأشـارَ بِيَدِهِ لِيتوقَّفَ الاحتفالُ ، ولَمْ يسمحْ باستئنافِهِ

إلا بعـدَ أَنِ اسْــتَدْعَى الحُجَّابَ والمُســاعِدينَ ، وطلــبَ مِنْهم البحثَ بِسُرْعَةٍ عَنِ الجَوْهَرةِ المَطْلوبَةِ .

وانتظرَ كَبيـرُ الحُجَّابِ حتَّى انتهَى الاحتفالُ ، فاسـتأذنَ لِيُخْبِرَ مَوْلاهُ أَنهُمْ سَـألوا التُّجَّارَ والخُبرَاءَ وبَحَثُوا عنـدَ الصَّائِغينَ وجامِعى التُّحَفِ ، فلمْ يَجِدُوا الجَوْهَرةَ الَّتِى تناسبُ مكانهَا فِى التَّاج .

امتلأَتْ نفسُ الخليفةِ بضيق شَـديدٍ عَبَّرَ عنهُ غاضِبًا : « كيفَ أكونُ سُلطانَ أعظم دولةٍ فى العالَم وَأفشلُ فى الوصولِ إلى جَوْهَرَةٍ » ؟!

قـالَ كَبيرُ الحُجَّابِ : « إذَا كُنَّا لَمْ نعثُرْ عليهَا فِي بغدادَ يا مَوْلاى فقدْ نَجِدُها فِى البصْرةِ .. أخْبَرَنى شَهْبندر التُّجَّـار أَنَّ الأمـلَ الوَحيدَ فِـى الوُصُـولِ إلى الجَوْهَـرَةِ لَنْ يكونَ إلا عندَ رجلٍ واحـدٍ منْ أغنياءِ البصرةِ اسمُهُ « عبدُ السلام الكَسْلانُ » .

وَفِى الحَـالِ أمـرَ الخَلِيفَةُ « مسـرورَ السَّـيَّافَ » حارسَهُ الخاصَّ بالتوجُّـهِ فورًا إلى مَدينَةِ البصْرةِ ، الميناءِ الرئيسِـىِّ للعراقِ ، على ألاَّ يعودَ إلاَّ فِى صُحْبَتِهِ ذلكَ الرجلُ .

② أعْجَبُ حِكايةٍ

بِمُجرَّدِ عَوْدَةِ مسْرور منَ البصرةِ تَوجَّه فَوْرًا لِمُقابلةِ مولاَه .. قالَ : « أحضـرْتُ الرجلَ مَعِـى وهـوَ ينتظرُ الإذنَ للوقُوفِ أمامَكُم ، لكنْ مَا رأيتُهُ عندهُ يفوقُ كلَّ وَصْفٍ .. »

سألَهُ الخليفةُ مُستنكِرًا : « لم أتعوَّدْ منكَ المُبالَغةَ يا مَسْرور » !

قالَ مسرور : « لسْتُ أبالغُ يَا مَوْلاى .. إنه لَيْسَ غنيًّا فقطْ ، بلْ هُوَ أغنَى الأغنيـاءِ .. ليسَ هنـاكَ أفخـمُ مِـنْ دارِهِ إلا قصرُ الخِلافةِ ..

أطباقُ طعامِهِ كلُّها مِنْ ذهبٍ وسِـرْجُ حصانِهِ مُزيَّنٌ بِالمَـاسِ واللُّؤلـؤِ .. ملابسُـهُ جَديرةٌ بإمبراطورِ الصِّينِ .. حتى حوائطُ حمَّامِ دارِهِ مَكْسُـوَّةٌ بِالرُّخامِ النادرِ الثمينِ المُطعَّم بالذهبِ والفضةِ » .

عندئذٍ سمحَ الخليفةُ بِدخُولِ الرجلِ أمامَهُ .

أبدَى « عبد السلام » عظيمَ احترامِهِ لِسيِّدِ البلادِ ، وعندما سمحَ له الرَّشـيدُ بالجلُوسِ ، اختارَ مقعدًا جلسَ فى حرصٍ على حافتِهِ ، وَقَدْ سيطرتْ عليه هَيْبةُ الخلافةِ .

فلمَّا أذِنَ له الخليفةُ بالحديثِ ، قالَ فى ثقةِ مَنْ يحترمُ نفسَهُ قبلَ أَنْ يحترمَهُ الآخرونَ : « يا أميرَ المؤمنينَ ، جئتُ معى بهديةٍ ، هل تسمحُ لِى بإحضارِهَا » ؟

فلمَّا جـــاءَ بهَـا غِلْمانهُ فِـى صناديقَ فَاخـرةٍ ، أخـرجَ عـددًا مِنَ التُّحَـفِ الغريبـةِ المُبْهِـرَةِ ، بينهَـــا أشـجارٌ مِـنَ الذهبِ ، أوراقُهَا زمردٌ أخضـرُ ، وثمارُهَا ياقوتٌ أحمرُ ولؤلؤٌ أبيضُ .

قالَ عبدُ السـلام : « مَولاى .. أَحمِـلُ إليكُـم هَـذِه الهـدايـا لا خـوفًـا مِـنْ ذنبٍ وَلَا طمعًـا فـى مُكَافـأةٍ ، لكننـى رجلٌ بسيطٌ لا تُناسِبُنى مثلُ هـذِه التُّحَفِ .. إنهَـا جديرةٌ – فقطْ – بمولاى السلطَانِ الأَكْبر » .

تَعجَّبَ الرَشيدُ أشَدَّ العجبِ فسألَ عبدَ السلام :

« مِنْ أينَ لكَ كلُّ هذَا ، والناسُ لا تعرفُكَ إلا بلقبِ « الكَسْلانِ » ؟! كمَا أخبرونِى أنَّ والدَكَ ظلَّ طَوالَ حياتِهِ حلاَّقًا ولم يتركْ ميراثًا » ؟!

عندئذٍ سمعَ الخليفةُ أَعجبَ حكايةٍ يُمكِنُ أَنْ يسمعَها إنسانٌ .

٢ الطبيبُ يُؤنِّبُ والِدَتِى

قالَ عبدُ السلام الكسلانُ :

صحيحٌ ما بلغَكَ يا مولاىَ منْ رحيلِ وَالدِى عَـنِ الدنيَا وأَنَا صغيرٌ لَمْ أتجـاوزِ الخامسـةَ ، وهـوَ لَا يملكُ مـالاً ولا عقـارًا ، فقـدِ اشتغـلَ

حلاَّقًا فقيرًا فى حمَّام عمومِىٍّ .

وَحتَّى الآنَ يَعرفُنىَ الناسُ باسـمِ « الكَسْلان » ، فَفِى طُفولتِى كنتُ أكثرَ الناسِ كســلاً . ووصلَ بى الكســلُ أَنِّى إِذَا نِمْتُ يومًا فوقَ ســطحِ بيتِنــا فــى يــومٍ مــن أيــامِ الحرِّ ثم غمَرتْنى أشِعَّةُ الشمسِ ، أكســلُ ولا أنتقلُ إلى الظلِّ .

أيةُ حركةٍ أقومُ بها تُسبِّبُ لى آلامًا فى كلِّ أجزاءِ جسمِى ، وأشعرُ بأَعضَائى مُفكَّكةً فلا أقدرُ على بذلِ أىِّ مجْهودٍ .

وكُلَّما تحدَّثْتُ إلى وَالدتى عمَّا أعانِى تنهرُنى وتقولُ :

« أنت تُبرِّرُ كسلَكَ .. قِلَّةُ حركتِكَ سببُ آلامِكَ .. »

عندئذٍ قرَّرْتُ تحمُّلَ آلامى صامتًا والتوقُّفَ عَنِ الشَّكْوى ، وَلَمْ تعدْ لِى حيلةٌ فِى تغييرِ لقبِ « الكَسْلانِ » الذِى عرفَنى به أهلُ البصْرةِ .

وذاتَ يَوْمٍ جاءَ طبيبٌ عالِمٌ ليُعالِجَ جارًا لنَا منْ أصدقاءِ طُفولتِهِ ، فقالَتْ والدتَى : « قُمْ مَعِى نذهَبُ إليهِ لعلَّهُ يعرفُ سببَ كسلِكَ » .

لكننى تكاسَلْتُ عنِ القيامِ معَها ، فأقْسَمَتْ إِذَا لَمْ أخرجْ معهَا فلنْ تُطعِمَنى أو تسقِيَنى ولَنْ تستجيبَ لأىِّ نداءٍ منِّى ، بل ستتركُنى أموتُ جوعًا وعطشًا !

وخشـيتُ أن تُنفِّـذَ وعيدَهـا ، فطلَبْـتُ منها مُسـاعَدتى لأقعدَ ، فأقعدَتْنى وَدمُوعى تنحدرُ لمَا أُحِسُّ به منْ آلام ، ثم رجَوْتُها إحضارَ ما أنتعلُهُ ، فجاءَتْ به . وَأَنْ تعاونَنى لوضعِهِ فى قدمىَّ ، ففعلَتْ .

ثـم قُلْـتُ : « احْمِلينِـى لِكِـىْ تَرْفعينـى مـنْ فَـوْقِ الأَرْضِ » ، فرفعتْنى .

طلبْتُ منها : « اسْندينِى لأمشِىَ » ، فأسندَتْنى حَتَّى خرَجْنا وأنَا أكادُ أقعُ مَعَ كلِّ خطوةٍ .

وَمَا إِنْ دخَلْنا بيتَ جارِنَا حتَّى سقطْتُ على الأرضِ كأننى كيسٌ من الثيابِ الباليةِ ! !

سألَ الطبيبُ : « مَنْ هذَا » ؟

قـالَ له أهلُ الدار : « هذا جارُنا عبدُ السـلام الكَسْـلانُ .. لم نرَهُ يخرجُ أبدًا من بَيْتِهِ إلاَّ هذهِ المرةَ » .

أثـارَتْ حالتى انتباهَ الطبيبِ ، فاسـتمعَ مـنْ والدتى إلى مَا كانَتْ تُسَمِّيهِ « كَسَلِى » ، ففوجِئَتْ بالطبيبِ يقولُ لها فى تأنيبٍ :

« كيـف تنسبـونَ حالـةَ ابنـكِ كلَّ هـذه السنـواتِ إلـى الكسـلِ وحدَهُ ؟! هذَا الذِى تُسمُّونَهُ كسلاً هو علامَةٌ خطيرَةٌ من علاماتِ مرضٍ فى الأعضـاءِ الداخليةِ .. اتركيه هنا عندَ أصدقائى وسـأُعطيهِ الدواءَ والغذاءَ المناسـبَيْنِ ، ثم أتابعُ أثـرَ علاجى ، فهذا مرضٌ أريدُ وَصْفَهُ وبيَانَ أثرِ علاجى له فى كتابٍ أقومُ بتأليفِهِ عن مختلفِ الأمراضِ » .

لَنْ أنسَـى فَضْلَ هذَا الرجلِ الجليلِ ، فمعَ كُلِّ علمِهِ وشـهرتِهِ كانَ

يقضِـــى الســـاعاتِ يُعطينـــى الدواءَ فـى مواعيدَ معلومـــةٍ ، ويعاونُنى لأتنـــاولَ أطعمةً اختارَها بعنايةٍ ومشروباتٍ أعدَّها فِى دقَّةٍ وصبْرٍ .

لو كنْتُ ابنَهُ لما بذلَ له مِنَ اهتمام أفضلَ ممَّا أَعْطَانِى !

ولَمْ يتركْنا إلا لضرورةِ الســفرِ ، بعدَ أنْ بدأَتْ آلامى تخفُّ وَكَسَلى يزولُ واســتَعَدْتُ قُدرتى عَلى تحريكِ أعضَائى ، وَالاعتمَاد عَلى نفسِى للخروجِ وَحْدِى مِنْ بيتِنَا .

٤ خَمْسَةُ دراهِمَ

عندَما بدأتُ أخرجُ ، أثارَ انتباهى سيدةٌ عجوزٌ رأَيْتُها مُلقاةً فوقَ فِراشٍ قديمٍ ، بجوارِ بيتٍ عندَ نهايةِ الطريقِ الَّذِى نسكنُ فيهِ .

سـألْتُ جيرانَهَـا فعرفْتُ أنهَا مُصابةٌ منذُ سـنواتٍ بشـللٍ أقعدَها عَـنِ الحركـةِ ، بينمـا أبناؤهَا قَدْ شـغلَهم عنهَا عملُهـم فِى أماكنَ بعيدةٍ .

عندئذٍ قرَّرْتُ رَدَّ جميلِ الطبيبِ الَّذِى عاونَنى عَلى الشفاءِ .. سأُصبِحُ كَابنٍ لهذهِ السـيِّدةِ .. اسـتعنْتُ بجيرانِهَا لنقلِهَا منَ الشـمسِ إلـى الظلِّ ، ومـنْ خَـارجِ بَيْتِهَا إِلَى داخلِهِ .. تعلَّمْتُ كيفَ أسـقيهَا الماءَ وأناولُهَا الطعامَ .. عرفْتُ طريقةَ الاستجابةِ لمختلفِ احتياجاتِهَا .

وعندَمـا رأى الجيـرانُ مدَى التَّفانـى الذِى أبذلُه فِـى خدمتِهَا ، ساعدَنى كلُّ واحدٍ بِقَدْرِ مَا يستطيعُ .

وظَللْـتُ أعملُ جهدِى للتخفيـفِ عنْ تلكَ السـيدةِ ، حَتَّى وصلَتْ حياتُها إلى نهايتِهَا بعدَ عِدَّةِ شهور .

وقبلَ رَحِيلِها بأيام قليلةٍ كشفَتْ لِى عنْ سرِّها الوحيدِ ..

أخبرَتْنى أنَّ كلَّ ما احتفظَتْ به مِنْ نقودٍ قد خبَّأَتْهُ فى حَشْوِ فِراشِهَا المُتهالـكِ ، ولأنَّنى أخلصْتُ فِى اهتمامِـى بهَا ، فهى تتركُ لِى بعدَ وفاتِها جميعَ ما أجدُه هناكَ .

لَمْ أتوقَّعْ معَ فقرِهَا العثورَ على شَىْءٍ كثيرٍ ، ومعَ ذلكَ فإنَّ المفاجأةَ فِى النهايةِ كانَتْ كَبيرَةً ..

لَمْ أجدْ إلَّا « خمسةَ دراهِمَ » فقطْ كانَتْ كلَّ ما تركَتْهُ ، لكنَّ حالتَها العقليةَ فى نهايةِ أيامِهَا ، صوَّرَتْ لهَا دراهمَها القليلةَ عَلى أنهَا ثروةٌ تمنحُنِى إيَّاهَا !!

⑤ شَيْءٌ من الصِّينِ

رجعْتُ بالدراهم الخمسَةِ إلى وَالدَتِى .

كانَتْ عائدةً لتوِّهَا منْ عملِهَا فِى بَيْتِ أحدِ أغنياءِ التُّجَّارِ .

مَـا إنْ سـمعَتْ منِّى قصـةَ الدراهـم الخمسـةِ حتَّى قالَـتْ فِـى حماسٍ :

« هـذه نقـودٌ قليلةٌ ، بل قليلةٌ جـدًّا ، لكنهَا جـاءَتْ بعـدَ عملٍ مُخلِصٍ صَـادقٍ .. هِىَ نقودٌ مُبارَكةٌ .. سـمعْتُ ممَّنْ كُنْتُ أعمـلُ اليومَ فى بيتِهم أنَّ التاجرَ المشـهورَ الشـيخَ « عبدَ الظـافرِ » اعتزمَ السـفرَ إلى الصـينِ ، وسـتُغادرُ سـفينتُهُ الميناءَ فجرَ الغـدِ .. هـذا الشـيخُ مِـنْ أهـل الخَيْـر ويُحِـبُّ الفُقَـراءَ ، ويتفـاءلُ فِى سـفرِهِ بِكُلِّ خدمةٍ يُقدِّمُهـا إليْهم .. خُـذْ هَذِه الدراهمَ الخمسـةَ وتعـالَ نذهبْ إليه نطلـبْ منه شـراءَ شَـىْءٍ لكَ مـنَ الصينِ ، إذا بِعْناهُ قـدْ نحصـلُ عَلى بعضِ الربح » .

توجَّهْـتُ مـعَ والدتِى إلىَ شـاطئِ البحرِ ، فسـلَّمْنا عَلى الشـيخِ وسألْتُهُ :

« يا عَمِّ .. هَلْ تسـمحُ مشـاغلُكَ أَنْ تهتمَّ بطلـبِ صغيرٍ لصبِىٍّ فقيرٍ يحتاجُ إلى معونتِكَ » ؟

أجـابَ فـى ترحيبٍ أبَـوِىٍّ : « اذكرْ حاجتَكَ وبإذنِ اللهِ أسـتطيعُ معاونتَكَ » .

قلْتُ : « خُذْ يا عَمِّ هذِه الدراهمَ القليلةَ ، واشــترِ لى بهَا شــيئًا مِنْ بلادِ الصِّينِ ، لعلَّ اللهَ يجعلُها ســببًا لربــِح يُعينُنى أنا وَوَالدتِى عَلى الحياةِ » .

لم يســخرِ الشــيخُ من ضآلةِ المبلغِ ولا من صِغَرِ سِنِّى وفقْرِى ، بَلْ سألَ أصحابَهُ الذينَ التفُّوا حولَهُ : « هَلْ تعرفونَ هذَا الشابَّ » ؟

قَالُوا : « هوَ مَشــهورٌ باســمِ « عبدِ الســلام الكَسْلانِ » ، لكنه ترك الكســلَ أخيرًا ، ورعَى بإخلاصٍ شئونَ ســيِّدَةٍ عجوزٍ مريضةٍ ، حتى أصبحَ قُدوةً نحكِى عنهَا لأبنائِنا » .

عندئـــذٍ مدَّ الشـــيخُ يدَهُ وتَنـــاوَلَ الدراهمَ وهو يقـــولُ فى إعجابٍ :
« بارِكَ اللهُ فيكَ وَفِى دراهِمِكَ يا عبدَ السلامِ .. »

٦ أوَّلُ الأرباحِ

ســـافرَ الشيخُ على ســـفينتِهِ المُحمَّلةِ بالبضائع ومعه جماعةٌ كَبيرَةٌ من التُّجَّـــارِ . وبعدَ مواجهةِ عواصفِ البحرِ وغَضَبِ المُحيطِ أســـابيعَ طويلَةً ، وصلُوا إلىَ الصينِ .

وتَنقَّلُوا منْ ميناءٍ إلى ميناءٍ عَلى شواطئِ ذلكَ البلدِ الغنِيِّ العريقِ ، يبيعــونَ بربــح كبيرٍ مَا جلبُــوهُ مَعَهُم مــنْ منتجاتِ بــلادِ الخلافةِ ومصنوعاتِها الدقيقةِ ، ويشترونَ كلَّ غريبٍ وعجيبٍ ممَّا يتنافَسُ عليه الأثرياءُ فِى بلادِ الخليفةِ العظيم .

وبعــدَ أن وفَّقَهــم اللهُ فِى بَيْعِ مَــا أَحْضروا أَخذُوا يَمْلئُون السَّــفينةَ بمَا اخْتَاروا من تُحَفٍ مُرتفِعَةِ القيمةِ خفيفةِ الوزنِ، بدءوا رحلةَ العودةِ .

ســارَتْ بهم الســفينةُ ثلاثةَ أيام عصيبةٍ ، واجهَتْ خلالَها عاصفةً رَعديّةً مُمطِرةً شــديدةً ، مزّقَتْ قُماشَ أكبرِ شِــراعٍ ، وغمرَتِ السفينةَ بالماءِ أكثرَ مِنْ مرَّةٍ ، وكادَتْ تقلبُها ذاتَ مساءٍ .

وعندَ صباحِ اليَوْمِ الرابعِ فُوجئَ التُّجَّارُ بِالشَّيْخِ « عبدِ الظافرِ » يُعلِنُ لهم قرارًا خطيرًا شديدَ الغرابةِ :

« لابدَّ مِنَ العودةِ إلى شواطئِ الصين » !

صاحُوا جميعًا فِى احتجاجٍ غاضبٍ :

« ليــسَ هناك ما يُبرِّرُ هــذَا القرارَ الغريبَ الَّذِى يُعرِّضُنا لمخاطرَ مُهلِكَةٍ » !

قالَ الشــيخُ فى تصميم : « شَــغَلَتْنا حســاباتُ الرِّبْحِ والخسارةِ عَنْ فعــلِ الخيرِ .. اللهِ عــزَّ وجَلَّ لَنْ يغفرَ لنَا نسيانَ الفُقَراءِ ، ونحنُ نسعَى لزيادةِ أرباحِنَا » !

قالُوا فِى صوتٍ واحدٍ : « لم ننسَ شيئًا » !!

قــالَ الشيخُ وهــو يشعرُ بتأنيبِ الضَّميرِ : « بلْ ضاعَتْ مِنْ ذاكرتِنَــا الرسالةُ التى حملْناهَا منَ الشابِّ عبدِ السلامِ الكَسْلانِ » !

صاحَ واحدٌ من التُّجَّارِ كانَ أكثرَهم سُخْطًا :

« نرجعُ كلَّ مَا قطَعْناهُ مِنْ هَذِهِ الرحلةِ الخطرةِ لأجْلِ خمسةِ دراهمَ تافهةٍ ؟!

ثلاثةُ أيام للعودةِ إلى الصينِ ، وثلاثةٌ مثلُها لنعودَ إلى موضعِنَا هذَا في سبيل ماً يُساوى ثمنَ خمسةِ أرغفةٍ مِنَ الخبزِ ؟!

هذا شَيْءٌ لَنْ يرضَى عنهُ أحدٌ » !

قالَ الشيخُ فى صوتٍ حاسم :

« إهمـــالُ الفُقَراءِ مجلبةٌ للَحظِّ السَّـــيِّئِ .. الوعدُ وعدٌ حتَّى لو تَعلَّقَ الأمـــرُ بدرهم واحدٍ ! .. تذكَّروا .. نحنُ نواجِهُ غدرَ البحرِ .. لا مفرَّ مِنَ العودةِ » !

عندئذٍ تأكَّدَ بقِيَّةُ التُّجَّارِ منْ تصميمِ الشـــيخِ عَلَى قرارِهِ ، فاجْتمعُوا وتشاوَروا ، ثُمَّ أعلنُوا قرارَهم للشيخِ :

« خُـــذْ مِنَّا أضعافَ أكبرِ ربحٍ تتوقَّعُ أَنْ تُحقِّقَهُ الدراهمُ الخمسـةُ ، لكنْ دَعْنا نواصلُ طريقَنَا » .

فِى تصميم قالَ الشيخُ وهو يضعُ صندوقًا كبيرًا أمامَهم :

« ادفعُوا الآنَ لحسابِ الكَسْلانِ مَا ترضَى عنهُ ضمائرُكُم » .

وَفِى الحالِ تَجَمَّعَتْ فِى الصندوقِ أموالٌ طائِلَةٌ تُســاوِى فِى نظرِ مَنْ دفعُوها مَا يُعادِلُ تفادِىَ ســتةِ أيــام من أخطارِ البحرِ وأهوالِهِ ، وهى أخطــارٌ لا يُقَدِّرُ مدى الرعبِ الذى تُثيرُهُ ، إلا مَنْ عانَى الصراعَ لأجلِ الحياةِ أثناء الإبحارِ ستةَ أيامٍ فِى بحرٍ هائجٍ !

⑦ قِرْدٌ مَنْتوفُ الشَّعْرِ

واصلَتِ السفينةُ سَيْرَها حتى اقتربَتْ من جزيرةٍ مزدحمةٍ بالسُّكَّانِ ، رَسَتْ عندَها ونزلَ التُّجَّارُ إلى شاطئِها ، حيثُ وجدُوا أهلَها يبيعونَ اللآلئَ ، فأخذُوا يختارونَ منهَا مَا يُعجِبُهم ويشترونَ .

أما الشيخُ عبدُ الظافرِ ، فقد صَحِبَ البحَّارَةَ إلى السوقِ لشراءِ أطعمةٍ طازجةٍ ، وهناك جذبَ انتباهَهُ رجلٌ يجلسُ وحولَهُ قرودٌ كثيرةٌ يبيعُها لأهلِ الجَزيرةِ ، الذينَ يعتبرونَهَا حيواناتٍ أليفةً يلعبُ أطفالُهم مَعَهَا .

وجـذبَ انتباهَـهُ قردٌ مَنْتـوفُ الشَّـعْرِ يلتصقُ بالبائـعِ لا يفارقُ مجلسَهُ ، مَا إنْ ينشـغلْ صاحبُهُ معَ أحدِ المُشترينَ حَتَّى تنقضَّ بقيةُ القرودِ عليه تشدُّ شعرَهُ وتنتفُهُ ، فيَقوم صاحبُها بضربِهَا لإبعادِهَا عَنْهُ .

كانَ واضحًا رَفْضُ القرودِ للقردِ مَنْتوفِ الشـعرِ ، تراهُ غريبًا عنهَا كأنهُ لا ينتمِى إلى نفسِ نَوْعِها .

والمُدهِـشُ أنَّ القردَ المُضطَهدَ تنبَّهَ إلى اهتمام الشـيخ به ، فأخذَ يُطيلُ النَّظَرَ إليه كأنمَا يستعطفُهُ أو يطلبُ إنقاذَهُ مِمَّا يُعانِى !

أشفقَ الشيخُ عبـدُ الظافـرِ عَلَـى ذلكَ القـردِ ، فاقتربَ مِـنَ البائعِ

يُبلِغُهُ عرضَهُ الذِى طرأَ عَلَى خاطرِهِ فى تلكَ اللَّحظةِ :

« هَلْ تبيعُنى هذَا القردَ لصبىٍّ يتيم بخمسةِ دراهمَ » ؟

قالَ البائعُ فى مُحاوَلةٍ للمُساومةِ : « هذَا نصفُ الثمنِ الذِى أبيعُ به غيرَهُ مِنْ قرودٍ » .

تَمسَّكَ عبدُ الظافر بمَا عَرضَ: « أُريدُ إنقاذَهُ من عُدْوان بقيةِ القرودِ عليه، كمَا أعاونُكَ حتَّى تتفرَّغَ للزبائنِ وتتوقَّفَ عَنْ ضَرْبِ حيواناتِكَ ».

ووجدَ الشيخُ أن البائعَ لا يزالُ يُفكِّرُ ، فأضافَ :

« ولَسْتُ أظنُّ أحدًا سيدفعُ فيهِ أىَّ ثمنٍ وهوَ يبدُو كالأجربِ بهذَا الشعرِ المَنْتوفِ » !!

كانَتْ هذه الحجةُ حاسمةً ، فزالَ تردُّدُ البائع وأعلنَ موافقتَهُ :

« بعْتُكَ هذا القردَ بالثمن الذِى عرَضْتَهُ، بارِكَ اللهُ فيه لمَن اشتراهُ ».

وتَسلَّمَ الشيخُ القردَ البائسَ ، فدهِشَ عندما وجدَهُ يُمسِكُ يدَهُ ويسيرُ إلى جوارِهِ شِبْهَ مُنتصِبِ القامَةِ ، فضحكَ وقالَ يتأمَّلُهُ :

« بقيةُ القرودِ تضطهدُكَ لتفوُّقِكَ عليهَا فِى الذكاءِ والفهْمِ ! .. الحالُ واحدٌ فى دنيا البشرِ وعالَمِ القرودِ » !

ثُمَّ طلبَ مِنْ بحَّارتِهِ رَبْطَ القردِ بحَبْلٍ يُثبِّتونَهُ إلى حلقةٍ فوقَ سَطْحِ السفينةِ كَىْ لا تقذفَهُ الأَمواجُ إلى البحرِ ، أو ينزلقَ ويضيعَ فى الماءِ عندمَا تميلُ السفينةُ بشدَّةٍ معَ الأَمواج .

ثم بدأ المَلاَّحونَ فى رَفْعِ شراعٍ بعدَ شراعٍ ، واستأنفَتِ السفينةُ رحلتَهَا إلى جزيرةٍ أُخْرَى .

⑧ إنه يستخرجُ اللؤلؤَ

كانَتْ أهمُّ حرفةٍ يقومُ بهَا أهلُ هَذِه الجزيرةِ الثانيةِ ، الغَوْصَ إلى قاعِ البحرِ لاستخراجِ اللُّؤلؤِ ، فقدْ تميَّزَتِ المناطقُ البحريةُ حولَهم بكثرةِ الأَصْدافِ التِى تحتوى عَلَى أَجْملِ اللآلئِ وأغلاهَا .

وَسُرعانَ مَا بدأَ بعضُ التُّجَّار يستأجرونَ رجالاً يغطِسونَ لحسَابِهم ، فيكونُ كلُّ مَا يستخرجُهُ الرجلُ ملكًا لمَنِ استأجرَه .

ورغمَ ارتفاعِ أجورِ الغَطَّاسِينَ ، وجدَ التُّجَّارُ أَنَّ ما يحصلونَ عليهِ مِنْ لؤلؤٍ مُتميِّزٍ بهذِهِ الطَّريقةِ ، لا يُكلِّفُهم نِصْفَ مَا دفعوهُ ثمنًا لشراءِ لآلئِ الجزيرةِ الأُولى .

وراقَبَ القردُ الغطَّاسينَ يقفزونَ إلى الماءِ ، ثم يطلعونَ بلآلئَ يُسلِّمونَها إلى التُّجَّار عَلى السفينةِ ، فيأخذُها هؤلاءِ وعلاماتُ الدهشةِ ترتسِمُ عَلى وُجُوهِهم .

ولم يتنبَّهِ الشيخُ عبدُ الظافرِ إلى تخلُّصِ القردِ مِنْ رباطِهِ ، ففوجئَ به يقفزُ منَ المركبِ إلى البحرِ ويختفِى تحتَ الماءِ .

صاحَ عبدُ الظافرِ فى أسفٍ : « يا للخسارةِ ! فقَدْنا القردَ الذى اشترَيْناهُ لِحسابِ الكَسْلانِ » !

لكنَّ دهشتَهُ كانَتْ طاغيةً هو وجماعةِ التُّجَّار كُلِّهم عندما ظهرَ القردُ بعدَ قليلٍ فوقَ سطحِ الماءِ وسطَ جماعةِ الغطَّاسينَ ، وَقَدْ أمسكَ عددًا منْ أجمَلِ اللآلئِ وأكبرِهَا ، أسرعَ يرميهَا أمامَ الشيخِ عبدِ الظافرِ .

وعندمَا رأَى القردُ علاماتِ الدهشـةِ علَى وَجْهِ الشـيخِ ، عادَ يقفزُ إلى الماءِ مع الغطَّاسينَ مرَّةً ومراتٍ ، ثم يصعدُ ومعَهُ كمياتٌ أكبرُ منَ اللآلئِ ، حتَّى تَجمَّعَ أمامَ الشيخِ مَا يملأُ كيسًا كبيرًا .

كانَ مـا جـاءَ به القـردُ وحدَهُ يعـادلُ كلَّ ما فازَ به بقيـة التُّجَّارِ مُجتمعينَ !

صاحَ الشيخُ وقَدْ ملأهُ الإعجابُ :

« إنه رزقُ عبدِ السلامِ الكَسْلانِ ، وهذا القردُ سرُّهُ عظيمٌ » !

⑨ رُعْبُ الاقترابِ من الجزيرةِ الثالثةِ

اكتفَى التُّجَّارُ بِمَا حصلُوا عليْهِ مِنْ لؤلؤٍ ، وحلَّ البحَّارةُ قلوعَ السفينةِ ، ودفَعتْها الرياحُ فِى طريقِ العودةِ .

لكـنَّ عاصفـةً عاتيةً فاجَأَتْهـم ، وظلَّتِ الأمواجُ تتقاذَفُ السـفينةَ يومًـا وليلتَيْنِ ، والبحَّارةُ لا يَهْدءونَ وهُمْ يُواجِهونَ البحرَ الغاضبَ ، يُنزِلونَ شـراعًا ويرفعونَ آخرَ ، لا يتوقَّفونَ عَنْ نَزْحِ الماءِ الذى يغمرُ السـفينةَ كُلَّما أفرِغُوهُ ، ويُعيدونَ رَبْطَ كُلِّ شَـىْءٍ لتثبيتِهِ فى مكانِهِ ، فلَا تتلاعبُ به تقلُّباتُ المركبِ معَ الأمواج .

وعندمَا هدأَتِ العاصفةُ ، اكتشفَ رُكَّاب السفينةِ أَنهمْ فقدُوا قُواهُمْ وَطرِيقَهم .. ضاعُوا ولم يعُودوا يعرفونَ إلى أين تتَّجِهُ سفينتُهم !

صاحَ واحدٌ منَ البحَّارةِ : « نرجُو منَ اللهِ السلامةَ ، فلَا نقتربُ مِنْ جزيرةِ صَيَّادِى الرؤوسِ » !

أسكَتْهُ الشيخُ عبدُ الظافرِ : « إذا كنتَ تطلبُ السلامةَ فلا تُلْقِ الفزعَ فى قلوبِ المُسافرينَ معنَا » !

لكنَّ صيحةَ الشيخِ لإسكاتِ ذلكَ البحَّارِ لَمْ تمنَعْهُ مِنْ تكليفِ بَحَّارٍ آخرَ بالصعودِ إلى قمةِ صَاريةِ الشراعِ الكبيرِ ، لمراقبةِ البحرِ حولَهم ، وإخطارِهِ فورًا بكلِّ مَا يراهُ ، كَىْ يبتعدُوا فِى الوقتِ المُناسِبِ عَنْ أيةِ جزيرةٍ تظهرُ عندَ الأفُقِ .

وتهامَسَ التُّجَّارُ يتساءلونَ فِى قلقٍ عَنْ حقيقةِ وجودِ « صيادِى الرؤوسِ » ؟

وبعيدًا عنْ سَمْعِ الشيخِ وبصرِهِ همسَ لَهُم بعضُ البحَّارةِ : « هُمْ قومٌ يكرهونَ الغُرَباءَ ويعتبرونَ كلَّ غريبٍ عَدُوًّا .. وعندمَا يقعُ مَنْ يسوءُ حظُّهم بينَ أيْدِيهم ، يحتفظُونَ بِهِمْ سُجَناءَ إلىَ أنْ يُقيموا حفلاً رهيبًا حولَ نارٍ عظيمةٍ ، يُلْقونَ إليها الأسْرى مُقيَّدينَ واحدًا بعدَ الآخَرِ ، يُراقِبونَ احتراقَهم ببطءٍ حتَّى الموتِ ، وهَمْ يرقُصونَ ويُغَنُّونَ عَلَى دقَّاتِ الطُّبولِ كَأَنَّهم انتَصَرُوا فِى حَرْبٍ .. »

كانَ الليلُ قد أقبلَ ، لكنَّ ضوءَ القمرِ أضاءَ بالكادِ سطحَ المُحيطِ المُترامِى .. ولم يذهبْ أحدٌ للنومِ .. كلُّهم كانُوا يترقَّبونَ مَا قَدْ تكشفُ عنه ظُلمةُ الليلِ .

وَاشتدَّ خوفُهم عندمَا سَمِعُوا البحَّارَ يصِيحُ مِنْ أَعلى الصَّارِيةِ :
« هناكَ جزيرةٌ إلى يسارِنَا .. »

واندفعَ البحَّارةُ والتُّجَّارُ يُدقِّقونَ البصرَ ، فَرَأوا عَلى مسافةٍ كَبِيرةٍ ، عَلى الرغمِ منْ عدمِ وضُوحِ الرؤيةِ ، مَا ظهرَ كأنهُ جزيرةٌ وسطَ الماءِ .

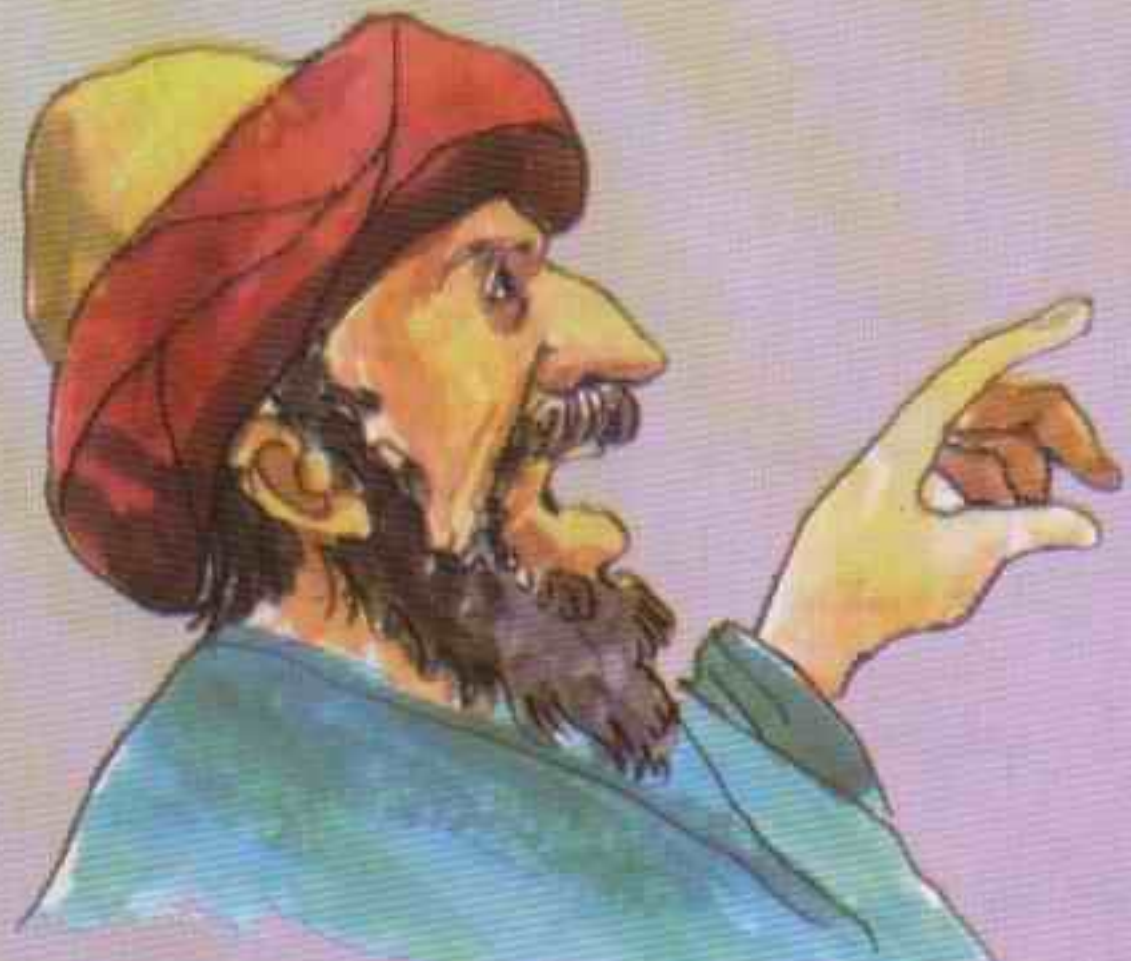

صاحَ الشيخُ عبدُ الظافرِ :
« حولوا الدفَّةَ لنتجهَ إلى اليمينِ » .

وَبسُرعةٍ نفَّذَ البحَّارةُ الأمرَ ، لكنَّ الشيخَ لاحظَ فى قَلَقٍ أَنَّ السفينةَ واصلَتِ اقترابَها مِنْ تلكَ الجزيرةِ بدلاً منَ الابتعادِ عنهَا !!

قالَ كبيرُ البحَّارةِ وقدِ اشتدَّ قلقُهُ حتَّى أصبحَ انْزِعَاجًا : « هناكَ تيارٌ مائىٌّ يقودُ السفينةَ نحوَ هَذِه الجزيرةِ الغامضَةِ ، تساعدُهُ رياحٌ تهُبُّ فِى اتجاهِهَا » !

أمرَ الشيخُ بحَّارتَهُ : « أنْزِلُوا الأشرعةَ واستخدِمُوا المجاديفَ » .

وَسُرعانَ ما صَعِدَ بعضُ البحَّارةِ يُنزِلونَ الأشرعةَ لوَقْفِ أثرِ الرياحِ المُعاكِسةِ ، بينمَا اندفَعَ بحَّارةٌ آخَرونَ يستخدمونَ المَجاديفَ لمقاومةِ التيارِ المائِىِّ .. لكنَّ جهودَهم جاءَتْ مُتأخِّرةً !!

فى رعبٍ صاحَ البحَّارُ الذى يراقبُ البحرَ : « إِنهُمْ قَادِمونَ » !!

كانَتْ هنـاك نقـاطٌ سوداءُ كثيرةٌ تتحـرَّكُ ، سرعَـانَ ما اكْتَشفُوا فِى فـزعٍ أنهَا قواربُ طويلةٌ تقتربُ .. عشـراتُ الزوارقِ الخَفِيفةِ يُجدِّفُ فوقهَا مئاتُ الرجالِ الأشداءِ عُراةِ الأَجْسام ..

وكانَتِ المسافةُ تضيقُ فِى كلِّ لحظَةٍ بينَهَا وبينَ السفينـةِ ..

⑩ صَيَّادو الرُّؤوسِ

صاحَ بحَّارٌ فِى رعْبٍ : « إنهم صَيَّادو الرُّؤوسِ » !

دفعَـتْ هَـذِه العبارةُ بقيـةَ البحَّارةِ إلـى بذلِ جهـدٍ جُنونِىٍّ فِى التجديفِ آمِلينَ الابتعادَ بمعجزةٍ عَنِ الزوارقِ الزَّاحفةِ ! ..

لكنْ .. لا فائدةَ .. السـفينةُ بغيرِ شـراعٍ أبطأ كثيرًا منَ القواربِ ، وعـددُ مَنْ يُجدِّفـونَ فوقَ كُلِّ قاربٍ يتسـاوَى مَعَ عَددِ بحَّارةِ الشـيخِ عبدِ الظافرِ كلهم !

وقبلَ أَنْ يُدرِكَ البحَّارةُ والتجَّارُ حقيقةَ مَا يحدثُ ، كانَتِ الزوارقُ قَـدْ أحاطَتْ بِهِمْ ، وبدأَ العُراةُ يقفِزونَ فِى مثلِ مهَارةِ الْقِرَدةِ وخِفَّتِها ويتعلَّقونَ بجوانبِ السفينةِ .

تركَ البحـارةُ التجديفَ ، واندفَعوا معَ التُّجَّـارِ يحاولونَ إبعـادَ المُهاجميـنَ ، مُسـتخدِمينَ كُلَّ مَـا وصـلَ إلـى أَيْدِيهم مِنْ أسـلحةٍ ومجاديفَ .

لكـنَّ الرجالَ العُراةَ تَكاثَـروا كالنملِ فوقَ ثمرةٍ حُلوةٍ ، وامتلأَ بِهِمْ سطحُ السفينةِ بسرعَةٍ عَجيبةٍ ، وانتشَروا يُفتِّشونَ كُلَّ ركنٍ فيهَا .

وبعدَ معركةٍ قَصِيرةٍ حَسـمَتْها الكثرةُ ، وجدَ كلُّ التُّجَّارِ والبحَّـارةِ أنفسَهم مُقيَّدينَ بقَسْوةٍ ، تلتفُّ حولَهم حبالٌ مجدولةٌ مِـنْ أليافِ الشَّجرِ ،

والرجالُ العُراةُ يتسابقونَ لنقلِهم إِلَى زوَارقِهم ، يُلقونَ بهم إليهَا كأنهُم أكياسُ بضائعَ ، فأصابَتِ الكُسورُ والرضُوضُ عظامَ مُعْظَمِهم .

ثم انطلقَتِ القواربُ إلى شـواطئِ الجزيرةِ ، يحملُها التيارُ السَّارِى وسطَ ماءِ المُحيطِ .

وكأنمَـا لإلقـاءِ الرعبِ فِـى قلوبِ الأَسْرى وإدخـالِ اليـأْسِ إِلَـى

نفوسِـــهم ، قادَهم صيَّادو الرُّؤوسِ منَ الشاطئِ إلى مقرِّ زعيمِهم فى طريـــقٍ ضيقٍ امتلأَ على الجانبَيْنِ بأكوامٍ عظامٍ وجماجمَ بشـــريةٍ بيضاءَ مِنْ أثرِ النارِ .

وأمرَ زعيمُهم بحبْسِ كلِّ أســيرٍ مُقيَّـــدًا فى قفصٍ مَتِينٍ مَصْنوعٍ مِـــنْ فروعِ الأشجارِ ، استعدادًا لإقامةِ « حفلِ الانتصارِ» مساءَ اليوم التَّالى .

لَـــم يُغْمِـــضْ جفنٌ لأىِّ تاجـــرٍ أو بحَّارٍ ، وهُمْ يتصـــوَّرونَ فِى رعبٍ نهايَتِهـــم البشـــعةَ التِى اقتربَتْ ، بينما نامَ أهـــلُ الجزيرةِ يحلمونَ بنارِهم القاتلةِ فِى اليومِ التالى !

⑪ ثمنُ النجاةِ الغالى

شـــىءٌ واحـــدٌ لم يخطرْ على ذهـــنِ صيَّادِى الـــرؤوسِ .. وجَّهوا كُلَّ اهتمامِهـــم إلى « الأعداءِ » مِنَ البشـــرِ ، وأغفلُـــوا الحيواناتِ ، لذلكَ لَمْ يتنبَّهوا إلى وجودِ القِرْد ! ..

فعندمَا انقضَّ العُراةُ يحتلُّونَ الســـفينةَ ، انتقلَ إلى القردِ الشـــعورُ بالفزعِ الذِى اجتاحَ أصحابَهُ ، فأســـرعَ يتســـلَّقُ صارِىَ أعلَى شـــراعٍ ، وتشبَّثَ بمكانِهِ المُرْتفعِ لا يتحرَّكُ .

وعندمَـــا بدأتِ الزوارقُ تندفـــعُ بأصحابـــهِ إلـــى الشاطئِ مُقيَّدينَ ، تبعَها ســـباحةً لا يلفتُ انتباهَ أحدٍ ، فضوءُ القمرِ الشـــاحبُ لاَ يكفِى لكشفِ قردٍ صغيرٍ يسبحُ فِى هدوءٍ عَلى سطحِ المُحيطِ الواسعِ .

ومِـــنْ بَيْنِ أغصانِ أشجارِ الجزيرةِ التِى راحَ يتنقّلُ فوقَها بهـــدوءٍ ، استطـــاعَ مُراقَبَـــةَ مَـــا يحـــدثُ ، وتابَعَ الشيخَ « عبـــدَ الظافرِ » فعرفَ

مكـــانَ القفصِ الذِى حبسُوه فيهِ . كمَا رأَى كيفَ أغلقَ رجالُ الجزيرةِ تلكَ الأقفاصَ بوسيلةٍ بدَائيةٍ ، تجعلُ منَ السَّهلِ فتحَها مِنَ الخارجِ ، لكنْ يصعُبُ عَلَى مَنْ يكونُ داخلَ القفصِ فتحُهُ .

وعندمَا سادَ هدوءُ الليل الجزيرةَ إلا مِنْ صوتِ نحيب بعض التجار وبكائِهِمْ ، تَسلَّلَ القردُ فى صمتٍ إلى بابِ قفصِ الشيخِ ، وفتحَ بابَهُ . ولم يســتغرقِ الأمرُ لحظاتٍ قليلةً حتَّى كانَ القردُ يقفُ بجوارِ الشيخِ المُلقَى عَلَى ظهرِهِ فوقَ أرضِ القفصِ .

وخــلالَ دقائقَ فكَّ قُيودَ الشــيخِ ، وحرَّرَهُ منَ الحبالِ الغليظةِ الَّتِى أحاطَتْ بِهِ فِى إحكام ، وســبَّبَتْ لَه آلامًا لا تُطاقُ . كانَ الألَمُ قد امتدَّ مِــنْ أطــرافِ الأصابعِ إلى بقيةِ الذراعِ ، بســببِ متانــةِ الرباط حولَ اليدَيْنِ والســاعدَيْنِ .. ومع أنَّ الشــيخَ لم يســتوعبْ بســهولةٍ حقيقةَ المعجزةِ الَّتِى حرَّرَتْهُ ، فقد تَسلَّلَ بهدوءٍ إلى بقيةِ الأقفاصِ يُطَمْئِنُ مَنْ فيهَا ، ويُنبِّهُهم إلى ضرورةِ الحرصِ على التمسُّــكِ بالصَّمتِ استعدادًا للخلَاصِ .

همسَ التجارُ للشيخِ : « أنقِذْنا كما أنقذْتَ نفسَكَ يا شيخُ » !

أجابَهم : « لم يُخلِّصْنى بإرادةِ اللهِ تعالى إلا هَـذَا القِردُ .. أنَا لمْ أعدْ قادرًا عَلى اسْــتخدام أَصابعى .. خصَّصْتُ للقردِ ألفَ دينارٍ ذهبًا لأنهُ سببُ نجَاتِى منْ موتٍ مُؤكَّدٍ » . قالَ التجارُ للشــيخِ : « ونحــنُ مثلُكَ .. كلُّ واحــدٍ يُخصِّصُ له ألفَ دينارٍ ذهبًا إذا خلَّصَنَا » !

وَلَمْ ينتظرِ القردُ وعُودَهم ..كانَ يعملُ بجِدٍّ وسرعةٍ عَلَى فتحِ أبوابِ الأقفاصِ وفَكِّ قيودِهم .. وكَمْ شعرَ الشيخُ بالأسفِ لأنه لم يستطعِ المشاركةَ بيدَيْهِ فِى إنقاذِ البحارةِ والتجارِ ، لكنَّ مهارةَ القردِ وسرعتَهُ حقَّقَتْ نتائجَها العجِيبَةَ ، فَلَمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى كانَ قد حرَّرَهم جَمِيعًا .

وَفِى هُدوءٍ حملَ السليمُ مِنْهم المُصابَ ، وتَسلَّلَ الجميعُ إلى الشاطئِ ، حيثُ عَثروا عَلى زوارقِ الرجالِ العُراةِ عندَ حافةِ الماء لا يحرسُها أحدٌ .. كانَ المُتوحِّشونَ مُطمئِنِّينَ إلى مَتَانةِ أقفاصِهِم ، فلَمْ يسبقْ أَنْ نجحَ أحدُ أَسْراهم فى الإفلاتِ مِنْ مَحَارقِهم .

وَفِـى صمْتٍ نزلَ المُســـافِرونَ إلــى تلك الزوارقِ وجَدَّفوا بنشــاطٍ إلى سفينتِهم ، حيثُ وجدوهَا لمْ ينقصْ منهَا شىءٌ .

وتَبادَلَ القادرونَ منَ البحَّارةِ والتجَّارِ التجدِيفَ بقوةٍ ، فَلَمْ تُشرقْ شمسُ الصباحِ التَّالِى إلاَّ وقَدْ ابتعدُوا مسَافاتٍ كبيرةً عَنِ الجزيرَةِ المشْئُومةِ .

جمعَ الشيخُ التجارَ وقالَ لَهُم وهُوَ يتنهَّدُ فِى ارتياحٍ :

« الله منحَنا السلامة بسببِ هذا القردِ ، وعلينا الوفاءُ له بما تعهَّدْنا بــه ، لعلَّ اللهَ يحفظُنا بعنايتِهِ بقيةَ الرحلَةِ حتَّى نعودَ سَــالمِينَ إلى البصْرةِ ».

وبغيرِ تردُّدٍ أخرجَ كلُّ واحدٍ منهم ألفَ دينارٍ ذهبًا ، فتجَمَّعَ للقردِ وصاحبِهِ عبدِ السلامِ الكَسْلانِ قدرٌ عظيمٌ جدًّا مِنَ المالِ .

⑫ ربحُ الدراهمِ الخمسةِ

تابعَ عبدُ السلامِ الكَسْلانُ حكايتَهُ :

« مَا إنْ لمسَــتْ قدمُ الشــيخِ عبدِ الظافرِ أرضَ البصرةِ ، وَقَدِ اجتمعَ حولَهُ أصحابُهُ يُهنِّئونَهُ بســلامةِ الوصُولِ ، حتَّى كنتُ أولَ مَنْ ســألَ الشيخَ عنه .. قالَ: أينَ أجدُ عبدَ السلامِ الكَسْلانَ » ؟

وعَرَفَتْ والدتى خبرَ ســؤالِهِ عنِّــى وهى فِى بيتِ تاجر كبير كانَتْ تساعدُ زوجتَهُ فِى بعضِ الشُّئونِ المنزليَّةِ ، فقالَتْ لى :

« الشيخُ عبدُ الظافرِ وصلَ على سَفينتهِ وهُوَ يسألُ عنكَ .. اذهبْ إلى بيتِهِ وسلِّمْ عليه ، لعلَّ اللهَ تعالَى يكونُ قَدْ فتحَ عليهِ بشىءٍ لكَ » .

وعندما رآنى الشيخُ تهلَّلَتْ ملامحُ وجهِهِ ، وتلقَّانى بترحيبٍ حارٍّ لَمْ أفهمْ سببَهُ حتَّى بعدَ أنْ قالَ :

« أهــلاً بمَنْ كانَتْ دراهمُهُ ســببًا لنجَاتِى وخــلاَصِ جميعِ التجارِ الذينَ كانُوا مَعِى » .

قلْتُ لنفسِى وقد تصوَّرْتُ أننِى لَمْ أسمعْ جيدًا ما قالَ :

« كيفَ يُمكِنُ لخمسَــةِ دراهــمَ قليلــةٍ أنْ تكــونَ سببَ نجـاةِ أكبرِ تَاجرٍ فِى البصْرةِ ، ومعهُ كلُّ التجَّارِ الذِينَ سَافروا عَلى سفينتِهِ ؟! .. والخلاصُ مِنْ أىِّ شىءٍ يا تُرَى » ؟!

وانتشلَنى الشيخُ مِنْ أفكارِى عندمَا أشارَ إلى شىءٍ التفَّ حولَ نفسِهِ فى ركنِ قاعةِ الاستقبالِ بدارِهِ الكبيرةِ ، وقالَ :

« خُــذْ هذَا القردَ فهو مِلْكُكَ ، اشتَريْتُهُ لكَ بدراهمِكَ الخمســةِ .. اذهــبْ بــه إلى بيتِكَ حتَّى أجىءَ إليكَ .. إنهُ فى حَاجةٍ إلى عنايةٍ لَنْ يجدَهَا إلا معَكَ ! »

أصابَتْنــى خيبةُ أملٍ عندمَا خرجْــتُ أحملُ القردَ بين يدَىَّ ، بينمَا يتطلَّعُ هُوَ إلى وجْهِى يتأمَّلُنى بطريقَةٍ لَا أفهمُها !!

« هــل يُمكِــنُ أنْ تكونَ هناكَ أيةُ علاقةٍ بيــنَ هذَا الحيوانِ الــذِى

لا يُجيدُ إلا تقليدَ حركاتِ الإنســانِ ، وبينَ « النجاةِ » التى يتحــدَّثُ عنهَــا الشيخُ عبدُ الظافرِ بكلِّ هذِه الحَرَارةِ » ؟!

عُــدْتُ إلــى الدَّارِ أقــولُ لوالدَتِى سَــاخرًا كَىْ أُخفِّفَ منْ شُــعورِى بالإحْبَاطِ :

« هَــلْ تعرفيــنَ شــيئًا عَنْ تجــارةِ القــرودِ التِى لا ســوقَ لهَا فِى بغدادَ » ؟!!

ووضعْتُ القردَ بيننَا وأنَا أُضيفُ وقدْ طغَى الضيقُ عَلى مَشَــاعرى ، بينمَا والدَتِى لا تفهمُ شــيئًا ممَّا أقولُ : « هذَا هُوَ الرِّبْحُ العظيمُ الذِى جاءَتْ به من الصينِ دراهمُنا الخمسةُ المُباركَةُ » !

وَكانَــتْ والدَتِــى بعــدَ يومَيْنِ لا تَــزالُ تبحــثُ بغيــرِ جــدْوَى عَــنْ كلماتٍ تُخفِّفُ بهَا مَا أصابَنَا مِنْ إحساسٍ بضياعِ الأملِ ، مهمَا كانَ هذَا الأملُ مُتواضِعًا ، عندما سمِعْنا طرقَاتٍ قويةً عَلى بابِ البيتِ .

قفــزْتُ بســرعــةٍ لأفتحَهُ ، ففوجئْتُ ببعضِ العــاملِينَ فِى متجــرِ الشيخِ عبدِ الظافرِ يسألونَنى :

« هل أنتَ عبدُ السلامِ الكَسْلانُ » ؟

فلمَّا أجَبْتُهم بالإيجابِ قَالُوا :

« سيِّدُنا عبدُ الظافرِ فِى الطريقِ إلى هنَا لزيارتِكَ ، وأرادَ التأكُّدَ مِنْ وجُودِكَ بالدارِ » .

سألْتُ نفسِى فِى حَيْرةٍ :

« مَا الذِى يحملُ الشيخَ الثَّرِىَّ عَلى المجىءِ إلى بيتِى المُتواضِعِ ، وقد تسلَّمْتُ منه فعلاً مَا اشتراهُ بكامِلِ دَرَاهِمِى التَّعيسَةِ » ؟

ووصلَ الشيخُ بنفسِهِ بعدَ قليلٍ ، فقمْتُ أُرحِّبُ به ..

قالَ : « هَيَّا مَعِى إلى دارِى » .

تبادلْتُ النظراتِ المُتسائلَةَ مَعَ أُمِّى ، فماذَا يُمكِنُ أَنْ أجدَ فى بيتِهِ إلاَّ عددًا آخرَ منَ القرودِ التِى أَصْبحَتْ كُلَّ حَظِّى ونصيبِى مِنْ سفرياتِ أكبر تاجر منْ تُجَّار البصْرةِ إلى الصِّينِ ؟

⑫ عَشْرَةُ صناديقَ

جلسْتُ مُرتبكًا فى نفسِ قاعَةِ الضيوفِ الَّتِى سبقَ أَن استقبلَنِى فيها الشيخُ عندمَا سلَّمَنى « الأُمانةَ الغاليةَ » التِى حملَها لى خِصِّيصًا طَوالَ الطريقِ مِنْ تلكَ البلادِ الأُسطوريةِ البعيدَةِ !

سمعْتُهُ يقولُ : « بالأمسِ فقط انتهَيْتُ منْ نقلِ مَا كانَ على السفينةِ إلى دَارِى » .

ثم أشارَ إلى بعضِ العَاملينَ عندَهُ ، وأمرَهم قائلاً :

« أحْضِروا الصناديقَ الخاصةَ بالسيِّدِ عبدِ السلام الكَسْلانِ » !

لَـمْ أفهـمْ ماذَا يقصدُ ، ولا عَنْ أيةِ صناديـقَ يتَحدَّثُ ، ولا لمَاذَا ، للمرةِ الأولى ، يسبقُ اسمِى بلقبِ « السيِّد » ؟!

هل يُريدُ أن يؤكِّدَ لعُمَّالِهِ لسببٍ مَا ، أهميةَ شخصِيَّتِى ؟!

راقبْتُ العُمَّالَ كأنِّى فِـى حُلْمٍ يقظةٍ ، وهم يَضعونَ أمامِى عشـرةَ صناديقَ والشيخُ يقولُ لى ، بغيرِ أَنْ أُصدِّقَ طبعًا أنَّ ذلكَ الحديثَ مُوجَّهٌ حقيقـةً لِـى أنَا : « لقد فتحَ اللهُ عليكَ بهـذه الأموالِ واللآلئِ مِنْ رِبْحِ الدراهم الخمسةِ » .

لَـمْ أَنطقْ بحرفٍ حرْصًا عَلَى الأدبِ ، فلا شـكَّ أن الرجلَ يسـخرُ منِّى ، أو لعلِّى فِى حلم أُعانِى من الهَلْوسَات .

لكنَّ الشيخَ عادَ يأمرُ العُمَّالَ ، فحملوا الصناديقَ فوقَ رؤوسِهم .

ووجدْتُهُ يضعُ بينَ يدَىَّ عددًا من المفاتيحِ ، ويقولُ فى بطءٍ وَوُضُوحٍ ليُنقِذَنى منْ ذُهُولى :

« احــرصْ على هَذِه المفاتيح ، فَــلاَ يمكنُ فَتْحُ صنادِيقِكَ المَتِينــةِ بغيرِهَا ، وامْشِ أمامَ عُمَّالى لتُرشِدَهم إلى طريقِ بَيْتِكَ » .

ولَعلَّهُ لاحظَ أننِى لَمْ أصدِّقْ شــيئًا مِمَّا قالَ ، فتمَهَّلَ قبلَ أن يُضيفَ فِى تأكيدٍ : « كُلُّ هذه الثروةِ لكَ » !

همسْتُ لنفسِى فِى اسْتنكار :

« عَنْ أيةِ ثروةٍ يتحدَّثُ » ؟!

مشَــيْتُ عاجزًا عَنِ التفكيرِ والتركيــزِ مثــلَ الســائرِ فِى نَوْمِــهِ ، فالصناديــقُ عددُها كبيرٌ ، لكنَّ الشــيخَ لم يفتــحْ واحدًا منهَا أَمَامِى ، ولا أســتطيعُ تصديــقَ أَنَّ واحدًا منهَا يُمكِــنُ أَنْ يحتوِىَ حقًّا عَلى مالٍ أَوْ جَوَاهرَ !

أخيــرًا دخلَ العُمَّالُ بيتنَا ، ووضعُوا الصناديقَ بينِى وبينَ والدَتِى والقردُ يُراقِبُنَا ، وَانْصَرفُوا .

سألَتْنى وَالدَتِى فِى دهشةٍ : « ما كلُّ هذَا » ؟!

قلْتُ : « مِنَ المُؤكَّدِ أنها ليسَتْ قرودًا أُخرى » !!

وفتحْتُ الصندوقَ الأولَ ! ..

كِدْتُ أفقدُ عَقْلى !!

بريقُ الذهب خطفَ بَصَرى !!

الصندوقُ مَلآنُ حتَّى حَافتِهِ بالدنانيرِ الذهبيةِ !!

ووجدْتُ نفسَ الأكوامِ منَ الذهبِ الأصفرِ اللَّامعِ فِى الصندوقِ الثانِى والثالثِ وحتَّى التَّاسعِ ..

أَمَّا العاشــرُ والأخيرُ وكانَ أكبرَهــا ، فمُكَدَّسٌ بلآلئٍ لا تتركُ فراغًا لشيءٍ آخرَ ..

⑭ خمسةُ دراهمَ مُبارَكَةٌ

قالَتْ والدتى ووجهُها يُشِــعُّ لأولِ مرَّةٍ فِــى حياتِهَا بنورِ فرحٍ حقيقِى : « الآنَ تُصَدِّقُ أنهَا خمسةُ دراهمَ مُبارَكَةٌ » !

وَهِىَ مُبارَكَةٌ حقًّا وبغيرِ حُدُودٍ ، وَإِنْ كنتُ قدِ احتجْتُ إلــى وقتٍ لأُقنِعَ نفسِــى بحقيقــةِ فضلِ القردِ الذِى اشــتراهُ الشــيخُ لحسَابِى بدراهِمِى !!

مدينةُ البصْرةِ انشغلَتْ بأسرِهَا ، عَلى مَدَى أسابيعَ طويلةٍ ، بأخبارِ القردِ وَحكاياتِهِ الفريدَةِ !!

أصبحْتُ أعاملُهُ كأنه أَخِى ، ووالدَتِى أحبَّتْهُ كابنِها .

أصبَحْنـــا صديقَيْنِ لا نفترقُ ، يتفاهمُ أحدُنا معَ الآخرِ فِى ودٍّ ومرح بكلِّ الوسَـــائلِ : بالإشارةِ ، بملامحِ الوجْهِ ، بَلْ بالكلمَاتِ التِى أصبحَ يفهمُ معنَى الكثيرِ منهَا .

وفتحْـــتُ متجرًا فِى سُـــوقِ الذهبِ أبيعُ فيه اللؤلـــؤَ والماسَ وأنواعَ التُّحَفِ والجواهرَ الغاليةَ ، والقردُ يجلسُ إلى جوارى فوقَ مِقْعَدى .. إذا أكلْتُ يأكلُ مَعِى ، وإذا شربْتُ يشربُ مَعِى ، ويُصفِّقُ بيدَيْهِ عندمَا يَرَانِى أُعطِى منْ مَالِى بسخاءٍ لأىِّ فقيرٍ أو مُحتاجٍ .

ثم فوجئْتُ به ذاتَ صَبَاحٍ يتركُنى ، ويعودُ معَ الظُّهْرِ ، يحملُ كيسًا من الجلدِ عليه كتاباتٌ بعلَاماتٍ غريبةٍ .

فتحْتُ الكيسَ ، وفوجئْتُ عندمَا وجدْتُ به ألفَ دينارٍ عليهَا كتابةٌ بنفس العلامات .

الكتابةُ الغريبةُ أكَّدَتْ لِى أنَّ الكيسَ والدنانيرَ تعودُ إلى زمنٍ سابقٍ لا علاقةَ له بأَحَدٍ منَ الأحيَاءِ .

وأصبحَـــتْ تلـــكَ عادتَهُ .. يغيبُ أولَ النهـــارِ ، ويعودُ فى منتصفِهِ بكيسٍ جديدٍ وألفِ دينارٍ كاملةٍ .

حَدَّثْتُ نَفْسى :

« لقد عثرَ على خزانةٍ نَسِيَهَا أصحابُها القُدَماءُ ، يذهبُ إليهَا خُفْيَةً عَنِ العيونِ ، ويُحضِرُ كيسًا كلَّ يَوْمٍ » .

لكنـــهُ ، ذاتَ يَوْمٍ ، بـــدلَ أنْ يُحضِرَ لِى كيـــسَ الدنانيرِ المُعتادَ ، جاءَ لى بواحدةٍ منْ هذِه الأشجَارِ التِى مِنْ ذهبٍ وأوراقُها مِنَ الزُّمُرَّدِ

الأخضرِ وثمارُها منَ اليَاقُوتِ الأحمَرِ واللَّؤلؤِ الأَبيضِ .

تأكَّدْتُ أنهُ اكتشفَ الطَّرِيقَ إلَى مدخَلِ كنزٍ مُذهِلٍ ، وعندمَا وجدَنى

أَبِيعُ وأشــترِى التُّحَــفَ والجواهرَ بدأ يُحْضِرُ لى مــا تَصوَّرَ أننِى فِى حَاجَةٍ إليه .

حاولْــتُ أَنْ أعــرفَ أينَ يذهــبُ ، وكيفَ يأتِى بكلِّ هــذه التُّحَفِ والثرواتِ المُدهِشةِ التى لا تناسبُ إلا قصورَ الملوكِ والسلاطينِ ، لكنهُ ظلَّ لا يستطيعُ أَنْ يفهمَ لماذَا تشغلُنى الحاجةُ إلى معرفةِ مكان الكنز مَا دَامَ يُحضِرُ لى منهُ فِى كلِّ يَوْم مزيدًا !

وذاعَتْ شُــهْرَتى بينَ الخُبَراءِ ، فما يُمكِنُ العثورُ عليهِ فِى متْجرِى لَنْ يجدوهُ فِى أىِّ مكانٍ آخرَ مِنْ بلادِ الخلافةِ .

وطالمَــا تمنَّيْتُ أَنْ أُقدِّمَ لمــولَاى الخليفةِ بعضَ هذه العجائبِ التِى لا تُناسِــبُنى ، وَلَا تليــقُ إلا بمقــامِ الســلطانِ الأعظــمِ مولانَا الخليفةِ هَارُون الرشِيد .

⑮ بها يكتملُ التاجُ

تَمهَّلَ تاجرُ اللؤلؤِ والتُّحَفِ المَشْهورُ « عبدُ السلام الكَسْلانُ » قبــلَ أَنْ يختتمَ حكايتَهُ قائلاً : « ومنذُ أســابيعَ جاءَنى القَردُ فِى حلم يقولُ لــى : دراهمُــكَ أنقذَتْنى مِنْ عدوانِ قرودِ جُزُرِ البحرِ ، وقد جئْتُ لكَ بالثــروةِ التِى لَمْ تبخلْ بهَا يومًا عَلَــى المُحتَاجينَ ، والآنِ حانَ وقتُ عَوْدتِى إلَى أرْضى .

وَفِى الصباحِ بحثْتُ عنه ، فلَمْ أعثرْ لهُ علَى أثر .

وكانَ آخــرُ مــا أتانِــى بِــه ذلكَ القــردُ العجِيبُ ، هَــذِه الجوهــرةَ النَّفِيسةَ » .

وأدخـــلَ عبدُ الســـلام يدَهُ بيـــنَ ثيابِهِ ، وأخـرجَ ماســـــةً فِـــى مثلِ حجْم بيضَةِ الدجَاجةِ ، يُشِعُّ منها الضوءُ ويتلألأُ ، وينعكسُ فِى ألوانٍ مُذهِلَةٍ عنْ أوجهِهَا المصْقُولةِ المتعدِّدَةِ .

مَـا إنْ رأى الخليفـةُ الماسـةَ النـادرةَ حتَّى صـاحَ وقـد تملَّكَتْهُ الدهشـةُ البالغةُ : « هـذِه هىَ الجوهرةُ المطلوبـةُ .. أوقِفوا البحثَ عنها فقدْ وجَدْناهَا .. بِهَا يكتملُ التاجُ ، وتعظمُ قيمةُ الهديَّةِ ، وتصفُو النفوسُ وترضَى » !

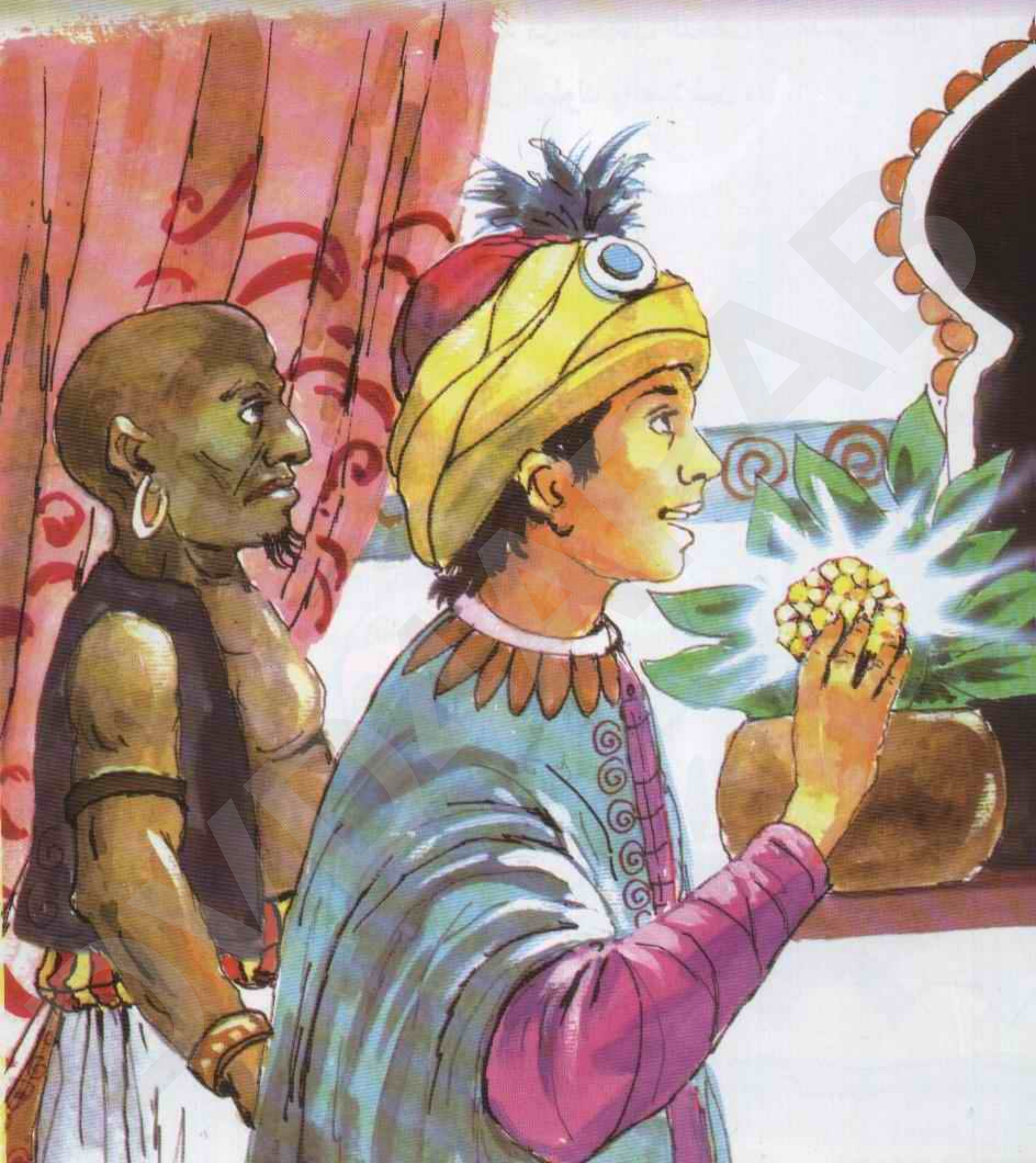

ثم التفتَ إلى ضَيْفِهِ وأضافَ :

« أَمَّا أنْتَ يَا « عبدَ السلامِ » ، فلنْ نُنادِيَكَ بعدَ اليوم « الكَسْلانِ » .. اسمُكَ منذُ اليوم « عبدُ السلامِ البَصْرِيُّ » ، واخترْناكَ لتكونَ « شهبندر » تُجَّارِ البصرةِ ، تأتى لتُشارِكَنا ليالِيَ السمرِ ، نستمعُ إلى حكمتِكَ وأخبارِكَ ، وتختارُ لنا مَا نشترِيهِ منْ عجَائبِ التُّحَفِ ، نُقدِّمُها هدايَا إلى الزوجَةِ .. وإلى الأصدقاءِ مِنَ الملوكِ وَالسَّلاطينِ » .

أنشطةٌ حولَ القصةِ :

نقترحُ عليكَ أن تشتركَ فى أحدِ ، أو كُلِّ الأنشطةِ الآتيةِ :

١ - قالَتْ والدةُ عبدِ السلامِ إن الدراهمَ الخمسةَ « نقودٌ مُبارَكةٌ » ، هل ترى أنّها كانَتْ مُبارَكةً حقًّا ؟ ولماذا قالَتْ هذَا التعبيرَ ؟

٢ - هناك شَىْءٌ مُتشابِهٌ فى علاقةِ عبدِ السلامِ بالطبيبِ ، وعلاقتِهِ بالسيدةِ العجوزِ المريضةِ ، وعلاقتِهِ بالقردِ ، هل هو المصلحةُ المُتبادَلةُ ، أم الاهتمامُ الإنسانِىُّ بالآخرينَ ؟

٣ - ما هِىَ فى رأيِكَ أهمُّ ملامحِ شخصيةِ التاجرِ « عبدِ الظافرِ » ؟ اذكرْ أهمَّ مواقفِ القصةِ التى تُبيِّنُ ما يتَّصِفُ به هذا التاجرُ من صفاتٍ .

٤ - هل كلُّ وقائعِ هذه القصةِ مُمكِنَةُ الحدوثِ ؟ تحدَّثْ ، من وجهةِ نظرِكَ ، عن دَوْرِ الخيالِ فِى أحداثِهَا .

٥ - تحدَّثْ عَنِ الصورةِ التى رسمْتَها فِى خيالِكَ حولَ حقيقةِ شخصيَّةِ القردِ .